

ادبنا القومي

- ٦ -

صفوة الكلام

خرج لنا مما سلف من القول ان في مصر لوتين من الأدب ادب الخاصة ، وادب الجمهور . او الادب العامي . أما ادب الخاصة فقد عرفت انه دأثر في فئة قليلة لا تقوم في العدد بشيء اذا أضيفت الى سائر الناس هذا الى انه جد فقير في أداء هذه الماديات التي تُندافع اليها من الغرب في كل يوم . واذا ذكرت ان العربية لا يتجن من أسماء الزهر الا الورد والفرجس والبهار والقرنفل والياسمين والياس والنسر ين (واكثرها ان لم يكن كلها معرب) وثلاثين او اربعين اسماً أوردتها صاحب المخصص للزهر والنبات الشذي ايضاً ، على ان احداً لا يعرف الآن لاكثرها مسمى — اذا ذكرت هذا وذكرت ان العالم ومن بينه مصر نفسها يولد في كل عام آلاف الازهار والانوار ويفيض على كل منها الاسم الذي يعينه ويميزه عما عداه اذا ذكرت هذا قدرت مبلغ فقر العربية في هذا الباب .

على ان الرأي في هذا يجب ان يصير الى مجمع لغوي قوي غني ثابت الاصل باسقى الفرع . ولقد كررنا هذا فيما سلف من الكلام .

وقد عرفت ان في مصر انصاراً للقديم وانصاراً للتجدد وعرفت مدى ما بينهما من الخلاف . وعلاج هذا يجب ان يترك للطبيعة فهي وحدها الكفيلة ببقاء الاصلح والقضاء على ما عداه . وهي وحدها التي تُنضج ما ندعو اليه حاجة الزمان وحاجة المكان . وعرفت ان هناك اختلافاً في اللهجات : تارة بقدر كبير وتارة بقدر صغير . وهذا يجب ان يترك علاجاً للزمن . على ان اللهجات جعلت ثقارباً وتتشاكل بتسريح نظر كل ادب فيما يبعث غيره من القول . وتلقط أحاسنه . واحتذاء كرائمه .

واما الادب العامي فهو الشائع المستغرق لسواد الناس خاصتهم وعامتهم في ادراكه وتذوقه بمنزله سواء . وأعلاه الزجل والموالي لانها ادناه الى الادب العربي . وقد عرفت مبلغ سلطان العامية في هذه البلاد ، فانها الجارية على ألسن الناس حتى الخاصة . فيها يتحاورون وبها يتقاولون في جميع اسبابهم . الا ان يجتمع احدهم لمحاضرة او بتكليف لاقاء خطبة . وعرفت كذلك انها أثبتت في النفس والصق بالحس بطول استعمالها وتقليب الألسن بها . كما انها أعظم غنى وأبلغ وفراً بادائها كل جديد . وترجمتها عن كل طرف بالتعريب وتارة بغيره من وسائل الترجمة والاداء .

واذا كانت العربية الخالصة نذعش الآن وتعلو بما يبعث اهل البيان من شريف الفاظها ورائع صيغها فان العامية من جهة أخرى ننتشر وتستخصد بنشرها وقدرتها على المواتاة . وخاصة فيما يخصنا به الغرب كل يوم من خلق جديد . واذا اضردت هذه الحال ابضاً طائفة من السنين انبتت العربية الخالصة وطاشت عنا بنجوة . الا ان نقنصر على ضئيل من مطالب الحياة . والا ان تستهار للزينة والتبجح الحين بعد الحين . هذا هو الواقع الذي لا يتداخله الشك ، والمكابرة فيه عبث من العبث لا يستحق المناقشة ولا الحوار .

وبعد فحقير ببلد كمصر له تاريخه الضخم . وله حاضره الفخم . وله مطلبه في الحياة وهو جسام — حقير به ان يعيش على العامية في لغته وفي ادبه جميعاً . والعامية مها ايسرت في الفاظها ومها تهبأ لها بعض الحين ان تشك من دفاق المعاني فلبست هي اللغة التي تستوي لعظام المطالب ، ولا التي ترضي الذوق الناضج . هذا الى انها لا تكتب ، فاذا كتبت نصل ماعسى ان يكون لها من رونق وبهاء . اما ما اثبتت منها على الكتابة كالزجل والموالي ونحوهما فهيات ان يؤدي مجرد النظر في نقشه الى صحة النطق به حتى اذا لفظته على حكم ما بين بديك من حروفه اضطرب نظمه واختل وزنه وفسدت معانيه وذوت نواضره .

ثم لا يذهب عنك ان أجود ما خرج في الادب العامي انما هو من صياغة اعيان الادب العربي ، فمنه استمدوا . وبه استعانوا . فاذا اعتلجت اللوعة في نفس العامي فنفت بها

فتمثلت في بعض القول بديعة رائعة ، فسرعان ما يسطو به جهله فيرديه في سائر الكلام الى الحضيض . واذا كان في العامة من يجيد لونا من ألوان هذا الادب ويحذفه كما اجتمع للقول فذلك لان له طبعاً . وهذا الضرب من الناس نادر ، والنادر لاحكم له . ثم ان بلاغة الكلام ليست حبساً على إصابة المعاني ، بل ان هناك ما هو ابل واعظم . هناك — وخاصة في بلاغة العربية — فحولة القول ، وشرف اللفظ ، وتلاحم النسيج ، واشراق الدباجة . وليس للعامة في شيء من هذا حظ كبير او ضئيل . واذا لم تكن تحضرك الامثلة التي سبق لنا ان ضربناها لك في هذا الباب فلنأت اليوم بما يشبهها ليتضح بها المقام .

قال الشاعر :

فقلت لجناد خذ السيف واشتمل عليه برفق وانظر الشمس تغرب
واسرج لي الدماء واعجل بمطري ولا يعين خلق من الناس مذهبي

وقال الشاعر :

يا ليتنا في غير امر فادح طلعت علينا العيس بالرماح -

وقال الشاعر :

فقلنا لساقيا زياد يرقها فقد هد بعض القوم سقي زياد

وقال الشاعر :

فسائل بني جرم اذا ما لقيتهم وسعدا اذا حجت عليك بنو سعد
فان يخبروك الحق عني تجدهموا يقولون ابي صاحب الفرس الورد

ولا شك في ان هذا الشعر يجلب اللب ويهز النفس ، على انك لو فتشته لرأيتَه فارغاً من كل معنى شعري ، او خيال يخلق بك في جو السماء ، او تشبيه يترقرق لنفسك ترقرق السراب على متن الصحراء . ولكنه سرى بفحولة اللفظ و براعة التأليف وجودة النسيج وسطوة الكلام .

وفي الغاية ، الى اين نصير بكتاب الله العزيز ؟ وهو حجتنا ، وهو ذريعتنا ، وهو آية ديننا ، وهو ميراثنا التالذ ، وهو مجدنا الخالد ، وهو حصننا نعوذ به كلما قهرتنا الاقدار ، وهو مشكاننا نستصحب بها كلما غم علينا وجه النهار — اين نصير به ؟ وكيف الحيلة يومئذ في نفهمه ؟ وكيف الوسيلة في تأمل نظامه وتعرف احكامه ، وكيف السبيل

الى إمتاع النفس به ونقع الغلة برائم آياته ، ومعجز بلاغاته ؟
 في الحق اننا لانستطيع ان نعيش على هذه العامية التي يجدرنا اليها الجهل والغرور
 والغفلة عما نفعل بنا الايام .
 وصدق ابو العتاهية فيما قال :

الليل يعمل والنهار ونحن عم - سا بفعالن باغفل الغفلات
 وبعد ، فما كنت لأذهب الى ازالة العامية واستئصال شأفتها من هذه البلاد ،
 فذلك مما يتصل بالاستخيل ، وقد كانت العامية قائمة في أنصر عصور العربية وأزكاها .
 ولا سبيل الى ازالة العامية لا بازالة العامة ، وانما أريد ان يعمل العاملون على إشاعة
 صحيح العربية في سواد الناس وتيسيرها لهم حتى يفهموها ويتذوقوها - ولو بمقدار حلواتها ،
 ويلجوا ما لها من روعة وجلال ، وذلك سهل ميسور . فاذا تم هذا أمكن الوصل ، بقدر
 محمود ، بين لغة العامة ولغة الخاصة ، وبين أدب هؤلاء وادب هؤلاء ، وذلك لان
 ما يترد منه من فصيح العربية وناصح بيانها سيذهب أذواقهم ، ويفسخ في ملكاتهم ، ويبعث
 نفوسهم الى الاستشراف كما أصابوا في العربية قولاً جميلاً ، ولا شك في ان هذا سيعلق
 على تطاول الايام بطبائعهم ، فنلنضج باثره السنتهم ، وذلك الذي يدفعهم الى الارتفاع
 بلغتهم وبادبهم حتى يتصلا بصحيح العربية ونصيحها ، وهذا يصح للبلد لغة واحدة وادب
 واحد . وان تفاوت مراتبه ، ونلونت مذاهبه .

واقدر زعمت لك في بعض الكلام ان السبيل الى هذه الغاية سهل ميسور ، ذلك اننا
 الآن جاهدين حقاً في إشاعة التعليم ، حتى اكتظت الحواضر بدور العلم . وهي بحمد الله
 كل يوم في ازدياد ، ولا ننس التعليم الالزامي المفروض الآن على جميع المصريين من بنين
 وبنات . فالرأي ان يتخير من شعر العربية ونثرها أسهل الكلام وألينه و يروى التلاميذ اثناء
 نشأتهم . وهكذا يتدرج بهم بما لا يرهقهم ولا يند عن طاقتهم .

ولقد قلت لك يروى ولم أقل يحفظ لان كثيراً من أسانيد البيان عندنا مع الاسف
 انما يعتمدون في تعليم تلاميذهم على مجرد التخفيظ ونفسير ماعسى ان يقع في الكلام من لفظ
 غريب ، فلا يمدوا ما يتلقاه الطلاب من تخبير الشعر ومصطفى النثر ان ينحاز الى المحافظة فيجتزئ
 فيها اختزاناً ، وما هكذا يكون تعليم البيان . انما يكون تعليم البيان بان تلقى على الطالب

القطعة المختارة من المنظوم او المنشور وانت توقعها ايقاعاً ينسق لما جرت به من بلاغة ، ثم لانفتأ نذبه حسه لما أضمرت من سر ، وما نفثت من سحر . ولا يزال خلال ذلك تظهر الافئنان والانهيار بما تلوكة من الكلام ، وبهذا تشتد طبيعته ، ويربو ذوقه ، ويتصل ذوق البلاغة بنفسه حتى ليجري من أعراقه مجرى دمه . ولو قد ختم دروسه على هذا وانطلق لشأنه في الحياة فيبها ان يسلو الادب . او يقصر في امتاع النفس بالاكباب على بيان العرب .

ومما يخطي فيه كثير ان ملكة البيان انشاء او مجرد تذوق لا تستوي للمرء الا اذا درس علوم النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع . نعم انهم ليخطئون في هذا : لان بناء الكلام وتذوقه لا يحتاج شي منها . في الواقع ، الى هذا كله ، وانى اختزل لك الطريق فاؤكد لك ان تسعين في المائة من اعلام البيان في هذه النهضة الحديثة لا يعرفون اكثر من بضع قواعد من قواعد النحو . اما ابنية المفردات وتصرفاتها فقد حصلوها من مراجعة المعاجم . ومذاكرة كتب العربية في الآداب والعلوم . حتى العروض فاكثروا لا يجيده ، وكثير منهم من لا يعرف من امره شيئاً . واما ما يدعونه علوم البلاغة فهي على ما انتهت اليها ، لا تغني في البيان كثيراً ولا قليلاً ، لان البيان الى انه طبيعة فان ملكته انما تنفسح بالتروى وترديد النظر والمحاكاة وطول التمرين .

ولقد كان للوزير المصلح الراحوم احمد حشمت باشا في هذا الباب رأي حكيم ، ذلك انه يجب الا يشاع كتاب ، وخاصة كتب التعليم ، الا اذا كان مضبوطاً بالشكل الكامل حتى اذا درج الناس على المنطق الصحيح وداموا بضع سنين بقلوبهم فيه السنتهم ، استقامت فطرتهم ، وصحت ملكاتهم ، فلا يدخل عليهم الخطأ او اللعن الا في النادر القليل . ولا شك ، بعد هذا ، في انه اذا تمهياً للمصلحين ان يبلغوا بالجيل الناشئ هذا المبلغ ، فان الطبيعة نفسها تأبى ان تنتشر في هذا الجو الا القصص الفصيحة والمنظومات البارعة ، والانشيد الرائعة ، ادنى ما تكون اتصالاً بالعربية ان لم ننفذ الى صميم العربية . ولا ننس ان المفردات وهي متن اللغة ومادتها انما يتكفل بها الحجم اللغوي ، ولقد تكرر في هذا الكلام .

بارجال الادب ، وياحماة لغة العرب ، وياكل مؤمن بالكتاب الكريم ، وياكل
غبور على جلال هذا الذكر الحكيم ، وياظهوراء العلم ، ويافائين على شأن التعليم ، وياذاعة
الاصلاح ويا قادة النهضة في البلاد - أنشدكم الله والدين والعلم والادب والوطن ان
تهبوا بجمعكم للذيادة عن لغتكم ، والجهد في شد مننها ، وتدعيم ركنها ، حتى ينبعث في
البلاد لسانها ، ويسرد كل بيار بمانها ، فما ذلك عليكم بمسير .

وبعد فلقد تطوحت في هذا البحث الذي أعلم ، وانا أعلم بنفسي ، انني له غير كفاء
وما دفعني اليه ولا اغراني به الا صدقي الاستاذ الجليل محمر المساء . ولعله بهذا انما
أراد لي ان أذكي قريحة خامدة ، وان احد فمكراً قد صدني ونثلم . وعلني بالتعرض
لهذا الموضوع اكون قد اثرت لمعالجته همم الاكفاء القادرين ، وهذا حسبي ، وهذا عما
قصرت فيه نعم العزاء .

وعلى كل حال ، فانني ان كنت قد أصبت في بعض القول فذلك من فضل الله وتوفيقه
واذا كنت قد اخطأت فني عفو الله . فبعض وفي حلم القارئين متسع (ان اريد الاصلاح
ما استطعت وما توفيتي الا بالله عليه توكلت اليه أنيب) صدق الله العظيم اه .
باحث

==(((عربي)))==